مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 19 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2023 الصفحات 332- 343

تراجيديا الهزائم والخيبات في فضاء مدينة بوسعادة من خلال رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل" لسعيد خطيبي

The Tragedy of Defeats and Disappointments in the City of Bou Saada through the NOVEL "Arbaewn eaman fi aintizar Iizabil" by Saïd Khatibi

عبد الغنّي لبيبات[1]،*

[1] *جامعة محمّد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج، (الجزائر)، abdelghani.lebibat@univ-bba.dz*

مخبر الدّراسات اللّغوية والأدبيّة المعاصرة

تاريخ الإرسال: 2023/09/25 تاريخ القبول: 2023/12/21

الملخص:

تسعى هذه الدّراسة إلى اكتشاف طبيعة الصّورة التراجيديّة التي رسم بها سعيد خطيبي مدينة "بوسعادة" من خلال روايته "أربعون عاما في انتظار إيزابيل"؛ حيث إنّ الرّوائي راح يقدّم لمحات وومضات من سيرة المستشرقة السّويسريّة إيزابيل التي مرّت على بوسعادة، ومن خلال أربعين سنة كذلك قضاها بطل الرّواية الشّيخ جوزيف في هذه المدينة، حيث رسم الرّوائي صورة مليئة بالأسى والخيبة والهزائم لبوسعادة التي شكّلت محطّة مكانيّة حاسمة في مسار أبطال روايته، فالإطار الزّماني لمرور إيزابيل بهذه المدينة تزامن مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، وكذلك آخر عشريّة من حياة بطله جوزيف تزامنت مع بداية سنوات الجمر التي عاشتها الجزائر، فصوّر لنا بذلك مدينة بائسة الملامح تعيش على وقع الهزائم والخيبات.

الكلمات المفتاحية:

الفضاء المديني؛

طابع مأساوي؛

المدينة؛

الأمكنة؛

الأشياء؛

ABSTRACT:

This study seeks to discovering the tragic image that Saïd Khatibi painted the city of Bou Saada Through his novel "Arbaewn eaman fi aintizar Iizabil", as the novelist will present glimpses and flashes of the life of the Swiss oriontalist Isabelle, who passed through Bou Saada, and through forty years, the hero of the novel, Sheikh Joseph, also spent in this city. Khatibi painted a picture full of sorrow, disappointment, and defeats for Bou Saada, which constituted a decisive spatial station in the path of the heroses of his novel, As the time frame of Isabelle's passage in this city coincided with the French occupation of Algeria, as well as the last decade of the life of his hero Joseph coincided with the beginning of the embers years experienced by Algeria, therefore he depicted for us a city with miserable features that lived on the impact of defeats and disappointments.

Keywords:
Urban space,
Tragic character,
City,
The places,
The things,

* عبد الغني لبيبات

مقدّمة:

أضحت المدينة بكلّ ما تحمله وتكتنزه بين رحابها وأرجائها مادّة فنيّة دسمة لكثير من الأعمال الرّوائيّة المعاصرة في العالمين الغربيّ والعربيّ، ولم تكن الرّواية الجزائريّة بدعا من ذلك، فهي منذ نشأتها الأولى عنيت بالمدينة وظهورها، فقد أعطى الرّوائيّون الجزائريّون للمدينة وجودا فاعلا في نصوصهم، فأضحى تسريد المدينة في الرّواية الجزائريّة المعاصرة ملمحا واضحا لاسيما في رواية الأزمة.

ويبدو تناول مثل هذا الموضوع طريفا وبسيطا في الآن نفسه، نظرا لثراء مثل هذه القضايا، واتساع مجال التّمثيل لها، إضافة إلى كون –المدينة في المتن الرّوائي– من القضايا الرّاهنة شديدة الاتصال بالملفوظ السّردي الجديد، ولذلك وقع اختيارنا على رواية – "أربعون عاما في انتظار إيزابيل" لسعيد خطيبي وهي إحدى الرّوايات الجزائريّة المعاصرة التي جعلت للمدينة حضورها اللّافت والمكثّف، فأتت مدينة بوسعادة مرسومة فيها، بطريقة فنّيّة مميّزة.

وقد جاءت الدّراسة في محورين أحدهما نظريّ والآخر تطبيقي، حيث عنونّا المحور الأوّل بـ: المدينة العربيّة في الملفوظ السّردي الجديد، وضمّ أربعة عناصر هي بالترتيب: (هندسة المكان وأهميتها في تشكيل الفضاء الرّوائي، شواغل رواية الفضاء المديني، الأبعاد الدّلاليّة للفضاء المديني في الرّواية الجديدة، سرد المدينة العربيّة "مظاهر القبح والنّقص")، أمّا المحور الثّاني فعنوانه: تراجيديا الهزائم والخيبات في فضاء مدينة بوسعادة من خلال رواية سعيد خطيبي، وضمّ بدوره ثلاثة عناصر كالآتي: (ملخّص الرّواية، تأثيث الفضاء المديني لبوسعادة ، الإفرازات الدّلالية لفضاء مدينة بوسعادة).

لتطرح في النّهاية إشكالية البحث كالآتي: كيف قام خطيبي بتأثيث الفضاء المديني لبوسعادة في روايته ؟ وما هي الأبعاد الدّلاليّة التي أفرزها فضاء المدينة على النّص؟

1– المدينة العربيّة في الملفوظ السّردي الجديد:

مع اتساع القضايا التي أصبحت تتصدّى لها الرّواية العربيّة المعاصرة – التي تسارع كلّ يوم في تغيير أثوابها الفنّيّة وارتداء المزيد من الأساليب السّرديّة الخائضة في عمق التّجريب – فإنّها لم تنس أن تجعل من المدينة تيمة لها، ولا غرابة في ذلك إذا ما لاحظنا البداية الأولى التي انطلقت منها الرّواية، حيث كانت فنّا بورجوازيّا في بدايتها لم يكتب لها إلّا النّشوء في أحضان المدينة، فلا مناص بالتّالي من أن تشغل الرّواية بتسريد الإطار المرجعي الذي نبتت فيه، كاشفة عن تناقضاته وملابساته.

1–1– هندسة المكان وأهميّتها في تشكيل الفضاء الرّوائي:

يلعب المكان دورا حاسما في تشكيل الأفضية داخل البنية السّرديّة للنّصوص، وقد أخذت مكانته تزداد أهميّة نظرا لكونه الإطار المرجعي التي تحدث فيه الوقائع، فبات لزاما على الرّوائيين الاهتمام بهذا المكوّن وإعطائه مساحة أوسع في نسيج رواياتهم، ومن "الخطأ... الاعتقاد بأنّ الرّواية الحقيقيّة قد تجمّدت إلى الأبد في قواعد صارمة وصريحة منذ عصر بلزاك"[1].

بل إنّه من اللّافت للانتباه أنّ "الرّواية الحديثة، خاصّة منذ بالزاك قد جعلت من المكان عنصرا حكائيّا بالمعنى الدّقيق للكلمة، فقد أصبح الفضاء الرّوائي مكوّنا أساسيّا في الآلة الحكائيّة"[2].وقد حدث التباس لدى بعض الدّراسين في علاقة المكان بالفضاء، وأيّ منهما يشمل الآخر أو يكوّن الآخر، ولا سبيل إلى تفصيل كلّ ذلك بإبراز جميع وجهات النّظر، إلاّ أنّنا نشير إلى أنّ المتّفق عليه عموما هو أنّ المكان جزء من الفضاء وأنّ الفضاء بدوره أشمل من المكان.

وقد حدّد الباحث حميد لحمداني في كتابه "بنية النّص السّردي" ثلاثة أنواع من الفضاء هي: الفضاء الجغرافي:(L'espace géographique) والفضاء النّصي(L'espace textuel) والفضاء الدّلالي(L'espace sémantique)، وما يهمّنا نحن في هذا السّياق هو الفضاء باعتباره معادلا للمكان، بحيث "يفهم الفضاء في هذا التصّور على أنّه الحيّز المكاني في الرّواية أو الحكي عامّة، ويطلق عليه الفضاء الجغرافي L'espace géographique فالرّوائي مثلا – في نظر البعض- يقدّم دائما حدّا أدنى من الإشارات الجغرافيّة التي تشكّل فقط نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، أو من أجل تحقيق استكشافات منهجيّة للأماكن"[3].

ونجد أنّ مجمل الأماكن المذكورة في المتن الرّوائي هي التي تؤثّث الفضاء العام للأحداث الرّوائيّة، بل ربّما يتجاوز دورها حضور الدّيكور في المسرح من حيث الأهميّة خاصة مع ما بتنا نراه في الرّواية الجديدة من أساليب فنيّة ذات مرونة في التّعامل مع المكان بأنسنته تارة وتشييئه تارة أخرى.

1-2- شواغل رواية الفضاء المديني:

إنّ الرّواية وهي تتعانق مع المدينة جاعلة منها موضوعا لها تتناول كثيرا من الجزئيّات والتّفصيلات الدّقيقة المتعلّقة بالفضاء المديني، بحيث يتحوّل فيها المكان إلى كيان اجتماعي"يحتوي على خلاصة التّفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولذا فشأنه شأن أيّ نتاج اجتماعي آخر يحمل جزءا من أخلاقيّة وأفكار ووعيّ ساكنيه ..."[4].

وتتعدّد تشكيلات الفضاء وطريقة رسمه وانبساطه في نسيج المتن الرّوائي تبعا للمنظورات المختلفة التي يتناول من جهتها، لأنّه "يعاش على عدّة مستويات: من طرف الرّاوي بوصفه كائنا مشخّصا وتخيّليّا أساسا، ومن خلال اللّغة التي يستعملها[...] ثمّ من طرف الشّخصيّات الأخرى التي يحتويها المكان، وفي المقام الأخير من طرف القارئ الّذي يدرج بدوره وجهة نظر غاية في الدّقة"[5].

وتبعا لذلك تبرز المدينة ككيان مشخّص متجسّد ومتكوّن في الآن نفسه من مجموعة من الأمكنة الحاملة لدلالات جزئيّة تتظافر فيما بينها لتكوين دلالة عامّة تصبغ الفضاء المصّور بصبغة معيّنة يحدّدها الرّوائي على لسان شخوص نصّه، فتبدو المدينة بذلك "تدوينا فظّا يشبه الوشم على خاصرة المكان، أو فوق الجهة الرّخوة من المكان وسعيا حثيثا لاقتناص الزّمن وحبسه في تجاويفها، ثمّ إراقته وقسره على حبس انسرابه بمسالكها، فلا يكتنه ما لم تقرأ علاماته على صروحها..."[6].

ولأنّ المدينة حاملة لمعاني الوفرة والتنّوع والثّراء على عدّة مستويات عكس فضاء القرية مثلا، فقد أضحت كل مظاهر هذا التّنوّع الجغرافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة جوانب وملامح ومداخل في الآن نفسه يلج منها

السّرد وتتفنّن الرّواية في سبر أغوارها، فتتشكل المدينة سرديّا كفسيفساء عاكسة لكلّ هذا الثّراء لاسيما "التنوّع البشري الذي تنطوي عليه المدينة وما يفرضه التنوّع من تغاير، أو تنافر، أو تضارب في العادات وأنماط السّلوك، والمعتقد والانتماءات والمشارب الثّقافيّة، والتطلّعات السّياسيّة، وأنماط الأنشطة الاقتصاديّة... "[7].

ونتيجة لذلك تصبح الرّواية الفاحص لكلّ هذه التناقضات المختلفة التي تموج بها المدينة، عاكسة لإفرازاتها، فتتعدد المواضيع التي تصبح وجبات فنيّة سائغة تصلح حبكات فنيّة ينطلق الرّوائي في تصوير تجاذباتها المختلفة.

1-3- الأبعاد الدّلاليّة للفضاء المديني في الرّواية الجديدة:

يأخذ حضور المدينة في المدوّنة الرّوائيّة المعاصرة أشكال تجلّ مختلفة، تتباين باختلاف البيئة التي يصوّرها الرّوائي وما تختزنه من ممكنات دلاليّة بحسب ثرائها وتنوّعها، سواء كانت هذه المدينة واقعيّة أو عبارة عن"حيّز متخيّل يرمز إلى البلاد كلّها، أو هو بتعبير آخر عالم مواز للعالم المرجعي، يفوقه إفصاحا عمّا جرى..."[8].

وتتنوّع الأبعاد الدّلاليّة التي يفرزها فضاء المدينة في المتون السّرديّة ولعلّ أبرزها الإحساس بالاغتراب، كون المدينة فضاء شاسعا، يتكوّن من توليفات بشرية مختلفة المشارب والاتجاهات، ومعروف "عن المدينة أنّها المكان الّذي يستلب فيه الإنسان، فيفقد هويته وانتماءه الاجتماعي، ويعيش الاغتراب الاقتصادي والسّياسي..."[9].

فإنسان المدينة يجد نفسه في حاضنة جغرافية مملوءة بتجاذبات مختلفة، لاسيما الفكريّة منها، كون المدينة تتوفر على كلّ وسائل التّواصل مع العالم الخارجي، وبذلك "يذوب في الزّحام، ويخسر دفء العائلة والانتماء العضوي، ويندفع مغتربا في شوارع عريضة مستقيمة"[10].

وبناء على ذلك تتحوّل المدينة بصفتها فضاء جغرافيّا مكانيّا قبل كلّ شيء إلى جهاز حامل لدلالة يرصدها الرّوائي على لسان أبطاله، بحسب المسار الذي يتخذه في عالمه السّردي الذي يحوكه، وهذا ما تمّ في الحقيقة في ظلّ الرّواية الجديدة التي اختطت مسارا فارقا في التّعامل مع عناصرها الفنيّة لاسيما المكان، الذي لم يعد رقعة جغرافية محدودة تعطى لها أبعاد ومسافات معيّنة تحصر ضمنها ولا تتجاوزها، بقدر ما صارّ مادّة ثريّة خصبة، تمّ تكثيفها دلاليا وشحنها فصارت تولّد المعاني، وتشارك في الأحداث، وتقتحم الوقائع ولا تكتفي فقط بتأطيرها.

ونجد في هذا الشّأن أنّ غاستون باشلار بمنهجه الظاهراتي الذي تبنّاه في كتابه الشّهير" جماليّات المكان" قدّم دراسة فلسفيّة نفسيّة عميقة جديدة في التّعامل مع الأماكن، وتناوله لما تثيره هذه الأخيرة من مشاعر وأحاسيس بالألفة رغم ضآلة حجمها في بعض الأحيان، كما دعا إلى إعادة النّظر في طريقة تحليلها ودراستها، فحسبه "لا تقتصر مسألة البيت على إعطاء وصف له أو ذكر مختلف أجزائه وتبيان وظيفة كلّ جزء وما تمنحه لنا من الرّاحة، بل على عكس هذا تماما، إذ يتوجّب علينا التّجاوز عن وصف البيت – سواء كان إيراد حقائق أو انطباعات – للوصول إلى الصّفات الأوليّة التي تكشف ارتباطا بالبيت يتوافق على نحو من الأنحاء مع الوظيفة الأساسيّة للسّكن"[11].

فالبيت وفقا لهذا التّصوّر لا ينبغي النّظر إليه كرقعة جغرافية محدودة، بل ينبغي التّعامل مع وظيفته الحقيقة في تحقيق الاطمئنان النّفسي والألفة بين جنباته، إضافة إلى الذّكريات المعيشة بداخله.

1-4- سرد المدينة العربيّة (مظاهر القبح والنّقص):

إنّ الملاحظ للمدوّنة الرّوائيّة العربيّة المعاصرة التي شغلت بفضاء المدينة يلاحظ ذلك الانتقال من وصف الجانب المادي التّضاريسي الجغرافي للمدينة إلى الانشغال بجملة من الدّلالات التي تفرزها المدينة من خلال سرد مثالبها، وتجريدها من كلّ ملمح جميل، فيتمّ بذلك "الانتقال من التّنويعات الطوبوغرافيّة* المتراكمة إلى مقاربة القيم الدّلاليّة المترتبة عنها ضمن السّياق الرّوائي"[12].

ونتيجة لجملة من الظّروف السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة المختلفة التي عاشتها الشّعوب العربيّة في الفضاء المديني، والتي يعتبر الرّوائيّ في خضمّها كائنا مطحونا مع بقيّة الشّعوب التي تقاوم الظّلم والطّغيان وتسعى إلى رفض واقعها والثّورة عليه في الغالب، فقد حمل على عاتقه مهمّة تصوير هذا الزّيف وإبراز هذه التّناقضات المختلفة من خلال الرّواية التي بوسعها استيعاب كل ذلك الكم من مظاهر التّشتت والضّياع، وهو ما أضحى سمة بارزة تميّز النّص الرّوائي المشغول بفضاء المدينة، فمن"أبرز المفارقات التي يمكن تلمّسها في متابعة صور المدينة العربيّة المتواترة في مختلف النّصوص التي تصدّت لسردها، يكمن في أنّ أجمل ما في سردها يتمثّل في طريقة سرد نواقصها، ومختلف أشكال قدرتها على قهر أبنائها، وعلى تنفيرهم منها، ودأبها على لفظهم بأقسى الأشكال، وأكثرها فظاظة وقبحا"[13].

والأمثلة في هذا الجانب أكثر من أن تعد، حيث تغلغل الرّوائي المعاصر إلى التّفاصيل الجوهرية والجزئيّات الدّقيقة كاشفا عن التّناقضات المختلفة التي تعيشها المدينة في علاقتها بساكنيها وفي علاقة بعضهم ببعض، فنجده يصفها بالعقم والقبح والعهر والبشاعة والقبح والعبوس والاتساخ والموت والرّعب والجحود والتّنكر والتناقض والالتواء، ويضفي عليها وابلا من القدح الذي لم تعد المدينة تسلم منه، حتّى وإن انطوت في ظاهر الأمر على ما يعاكس ذلك أو يباينه.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل نجد انتقالا من توصيف نقائص المدينة إلى تأنيثها تمهيدا لوأدها وتمويتها و"لاشكّ في أنّ هناك فرقا جوهريّا بين تمويت المدينة وتأنيثها، لكن حين يعتمد التأنيث أساسا للذّم ومصدرا للهجاء وشكلا من أشكال التفجّع على استشراء ظاهرة الخصاء، يصبح التّأنيث عندئذ ملاصقا لحالة التّمويت أو مظهرا من مظاهره. والملاحظ أنّ كثيرا من حالات تأنيث المدينة العربيّة لا الجزائريّة فقط ربط التأنيث بالعهر، إذ نجد عبارة (المدينة العاهرة) عبارة متواترة بشكل يكاد أن يشكّل ملمحا من ملامح سرد المدينة العربيّة "[14].

فهناك تراتبيّة غائصة بالمدينة في العمق السّحيق من مركبات النّقص الذي يبدأ من تجريدها من كلّ القيّم الإيجابيّة، حيث يهوي بها السّارد إلى مدراك الابتذال والخمول واللاجدوى وانعدام الأفق ليجهز عليها فتصير جثّة محنّطة بالسّلبيات، ويصير العقم والفناء قدرا سرديّا محتوما عليها.

2- تراجيديا الهزائم والخيبات في فضاء مدينة بوسعادة من خلال رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل" لسعيد خطيبي:

2-1- ملخّص الرّواية:

تدور أحداث هذه الرّواية حول حياة وسيرة الشّيخ الفرنسي جوزيف رينشار أو كما يسميه أهل المدينة بالحاج جوزيف، وهو بطل حاز على العديد من الأوسمة الوطنيّة نتيجة مشاركته في الحرب العالميّة الثّانية، ثمّ مشاركته في حرب التّحرير الجزائريّة ضد الاستعمار الفرنسي، تشاء الصّدف أن يتعرّف أثناء الحرب النّازية على صديقه الجزائري سليمان ويقاتلا جنبا إلى جنب، وبعد انتهاء الحرب قرّر جوزيف المجيء إلى الجزائر والاستقرار بمدينة بوسعادة، يقوده شغفه بسيرة المستشرقة السويسرية إيزابيل إيبرهارت التي عاشت بالجزائر في الفترة ما بين 1897 و1904، واعتنقت الإسلام حيث كان معجبا بشخصيّتها، راغبا في التّنقيب عن حياتها خاصّة بعد أن ظفر بمخطوط لها قديم ونادر من عند أحد عمّال البلدية قايضه بمروحة كهربائيّة.

يقيم جوزيف مع صديقه سليمان في مدينة بوسعادة، وحضور سليمان كذلك في النّص شاحب، لا نكاد نلمحه إلاّ من خلال جوزيف، ويبدو أنّه رجل من العصر الغابر، مفتون بحكمة الأجداد وأحاديثهم، رجل بتر علاقته بأهله تماما، كما بتر جوزيف صلته بوطنه الأم فرنسا.

تأتي شخصيّة جوزيف وهي الشّخصية المحورية في النّص حاملة لكل ميزات الاضطراب والتشرذم، فالبطل ضائع بين وطنين وهويتين، في مدينة يصفها بالعقم والجحود والتّعاسة والنّكران، يسرد يومياته فيها، يروي قصصا حدثت في أزقتها وطرقاتها وشوارعها، يصف أحوال النّاس فيها وطبائعهم وعاداتهم، يقف تارة عند تاريخ المدينة ومن مرّ بها، وفي الأخير يعلن يأسه وقنوطه من البقاء فيها، خاصّة مع بداية اضطراب الوضع الأمني للبلاد وصعود تيّار إسلاموي متشدّد يتمثّل في حزب العدالة الذي يعد زعماؤه في حالة فوزهم بمصادرة أملاك الأجانب وتوزيعها على السّكان المحليّين.

يحسّ جوزيف بالغربة وهو الذي عاش أربعين سنة في هذه المدينة، اعتنق الإسلام وذهب إلى الحجّ مع صديقه سليمان وحفظ بعض السّور من القرآن، وعلى الرّغم من ذلك بقت النّظرة إليه كأجنبيّ رومي غريب الوجه واليد واللّسان.

مع اضطرابات وأحداث 5 أكتوبر 1988 وبداية التّسعينات تعكّر الوضع الأمني، واضطربت الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة، فحمل جوزيف جزءا من ذاكرته المنتهبة وبعض لوحاته وأغراضه، وسافر مع صديقه سليمان إلى الشّمال، إلى شقّته في الضّاحية الباريسيّة تاركا خلفه ذاكرة مثخنة بالتّفاصيل التي عاشها أربعين سنة في مدينة نقم عليها و هجاها بالقدر نفسه االّذي أحبّها به.

3-2- تأثيث الفضاء المديني لبوسعادة في الرّواية:

ليست الأماكن وحدها في الحقيقة من بإمكانها أن تؤثّث فضاء الرّواية وتشكّل عالمها السّردي، فالأماكن بحصر معناها ودلالتها مساحات وأبعاد خالية من كلّ روح ومعنى إذا تمّ تناولها مجرّدة عمّا يشغلها ويوجد في تفاصيلها، ولا تعدو أن تكون فراغا أصما إذا أفرغت من الأشياء ومن الذّكريات.

ربما هذا ما أدركه سعيد خطيبي في نصّه هذا، فنجده على لسان الرّاوي جوزيف رينشار وهو يخطّ لنا لوحة فريدة من نوعها عن مدينة بوسعادة لا يشغل فقط "برثاء مدينة توارى مجدها العريق، فقد طبع السّرد بطابع الكآبة والأسى"[15].

نلمح هذه النّبرة الحزينة المليئة بالكآبة في توصيف جوزيف للمدينة انطلاقا من شكلها الخارجي من بيوت وشقق وعمارات وحدائق، ثمّ نفاذا للحديث عن ساكنتها ومسئوليها وتصرّفاتهم، إذ يقول: "بيوت قديمة كان يسكنها رفاق لي، غيّرت من شكلها، قسّمت إلى شقق صغيرة وسكنها أناس لا أعرفهم ولا يعرفون شيئا عن الماضي، وعمارات شوّهت واجهاتها بألوان غريبة، وهدّمت منحوتات الرّؤوس البشريّة التي كانت تزيّن مداخلها. ثمّة حديقتان صغيرتان كان يرتفع فيهما شجر صنوبر أزيلتا من وسط المدينة، شغلت مكانهما بوتيكات تجاريّة، والنّافورة الوحيدة التي كانت توجد على الطّريق المؤدّي إلى الجزائر العاصمة امّحت وناب عنها تمثال حجري لكبش بقرنين معوجّين..."[16].

وهذه الحمولة الدّلالية لا تصنعها في الحقيقة الشّوارع والأزقّة والبيوت فحسب، وإنّما تصنعها كذلك الأشياء الحميميّة التي ألفتها الشّخصيّة وتعودتها واطمأنت لها في هذا الفضاء المكاني، وتصنعها كذلك الذّكريات التي عاشتها وعاشت بها على مدى أربعين سنة متوالية، شكّلت زادا عميقا تدثّرت به شخصيّة جوزيف وازدادت تعلّقا ببوسعادة ونفورا منها في الآن نفسه. فنلاحظ بروز "دلالة الخيبة والهزيمة في رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل"، وكأنّها تدقّ ناقوس نهاية أوهام الثّورة الدّائمة التي طالما داعبت أحلام الجيل الذي ينتمي إليه جيل جوزيف وسليمان وتبدّدت الأوهام، وعوّضتها الوساوس والفسولة وعياء الشّيخوخة ..."[17].

فجوزيف على مدار الرّواية نراه يحسّ بانكسار نفسي حاد، هو شخصيّة فقدت ذاتها وتاهت في فضاء مدينة نشأت بينه وبينها علاقة غريبة، فهو بقدر ما يحبّها يبالغ في ذمّها واحتقارها، وهي بقدر ما تحتويه تبالغ في التّنكيل به والتّنكر لماضيه، فنجده على مدار الرّواية "يسقط في إنشاءات طويلة وعريضة عن المدينة الجاحدة والبائسة...إلخ، وحول كلّ هذا هناك يوميّات الانتظار، يوميّات التذّكر والحديث عن العيش في مدينة من غير روح، يصف النّاس والأماكن والأبنية، يصف الأحداث الصّغيرة والكبيرة بين البيوت والمساجد والمقاهي..."[18].

وبالتّالي ففضاء المدينة لا يقوم بالأماكن وحدها بل بثلاث مكوّنات أساسية نراها ساهمت في تأثيث الدّلالة العامّة لفضاء مدينة بوسعادة داخل المتن النّصي وهي: الأماكن، الأشياء، الذّكريات، حيث سبقت الإشارة إلى أنّ غاستون بشلار في حديثه عن جمالية المكان، يرى تلك الجمالية غير متأتية من المكان في حدّ ذاته بوصفه حيّزا جغرافيّا محدودا، وإنّما يتجاوز الأمر ذلك إلى تحديد طبيعة علاقتنا مع هذا الفضاء، من حيث الذّكريات التي تنشأ

في ثناياه، والمشاعر التي تراود المرء داخله، والأشياء التي تمثّل أجزاء حميمة من كينونتنا المتشكّلة في فضائه، وهذا ما تجسّد على مدار الرّواية في علاقة جوزيف بمدينة بوسعادة، التي لم تمثّل له رقعة مكانيّة فحسب، بقدر ما مثّلت بكلّ تفاصيلها، الملجأ والمأوى وموطن الذكريات، وملتقى الأحلام والآلام، ومنبع تفاصيل الحياة اليوميّة الأكثر دقّة وتجزيئا.

3-3- الإفرازات الدّلاليّة لفضاء مدينة بوسعادة في الرّواية:

إنّ رواية "أربعون عاما في انتظار إيزابيل" هي رواية المدينة بامتياز، رواية شغفت بتصوير «بوسعادة» بكلّ مظاهر التّنوّع والثّراء الذي احتوته بتفاصيلها وأجزائها، انطلاقا من المظهر العمراني، إلى التّاريخ المتلاحق المضطرب، إلى مراحل تعمير المدينة، إلى منشآتها، وأزقتها، وأحيائها، وطرقاتها، ومقابرها، ومساجدها، وزواياها، وأسواقها، ومحلاّتها، تقاليد أهلها، وسلوكاتهم، وإلى تفاصيل حياة السّارد اليوميّة فيها وما جعله يرتبط بها وينقم عنها، ودليل ذلك أنّ ذكر كلمة مدينة مطلقة أو مقيّدة دون وصف يلحقها قد تكرّرت على مدار الرّواية أكثر من ثلاثين مرّة، وسنستعرض في الجدول الموالي بعض المواضع التي تمّ فيها ذكر المدينة، والوصف الذي لحقها سواء كان وصفا صريحا، أو مكنّى عنه لنستنتج فيما بعد طبيعة الصّورة العامّة التي رسم بها السّارد ومن خلفه الرّوائي مدينة بوسعادة:

الجدول رقم01: صفات مدينة بوسعادة في رواية سعيد خطيبي:

المدينة	الصّفة (صريحة / مكنّاة عنها)	الصّفحة
بوسعادة	●المدينة الترابيّة البكماء.	12
	●المدينة المعادية لنفسها.	13
	●هذه المدينة الصّهباء والمتوحّدة.	14
	●المدينة تتكوّر حول نفسها.	17
	●حفرة تحمل صفة مدينة.	17
	●المدينة المتكوّرة حول نفسها.	22
	●البقعة الموبوءة بالخلافات القبليّة.	24
	●هذه المدينة الفظّة الجاحدة.	30
	●هذه المدينة المتعجرفة.	39
	●هذه المدينة مصفرّة الوجه.	55
	●المدينة المتثائبة.	84
	●هذه المدينة الصّادمة.	88
	●بوسعادة الملكة الصّهباء المحروسة بالتلال البنفسجيّة "توصيف إيزابيل".	88 89
	●مدينة مخصيّة بلا فحولة.	89
	●مدينة مشبعة بالأوهام	92
	●المدينة الملتوية.	92

	●هذه المدينة التي تفوح منها رائحة ●المدينة التي تتسع للحقد ●المدينة الخانعة المغلوبة ●المدينة المجاهرة بخياناتها. ●مدينة منقلبة على محبّيها. ●هذه المدينة المغترّة بنفسها. ●مدينة عاقة وقبيحة ●هذه المدينة المنطوية على نفسها. ●هذه المدينة العابسة.	102

رواية أربعون عاما في انتظار إيزابيل: سعيد خطيبي، 2016.

إنّ المتأمّل لهذه الأوصاف التي يلحقها السّارد بالمدينة يجد أنّها ترشح بالسّلبيّة، وتتدرّج من الأنسنة والتّشخيص الّذين يراد بهما التّمكين للمدينة إلى الأنسنة والتّشخيص الّذين يراد بها التّمويت والإلغاء والتّفتيت، انطلاقا من محو جميع القيم الإيجابية، وإلصاق كلّ ماهو دوني وناقص وقبيح بفضائها العام، فتتحوّل معه المدينة إلى كومة من المثالب والعيوب.

ففي الوقت الذي يجيء مرّة واحدة وصف بوسعادة بالحسن والجمال بلغة شاعريّة، لا يأتي ذلك إلاّ على لسان إيزابيل في مخطوطها في قولها:"بوسعادة، الملكة الصّهباء، المحروسة بالتلال البنفسجيّة، كانت ترتدي حدائقا معتمة، وتنام بعشق على الحافة المنحدرة للوادي، حيث ينساب الماء على الحجارة البيضاء والورديّة بانحناء كتقاعس حلم على الجدران الترابيّة الصّغيرة ..."[19].

سرعان ما نجد السّارد يبادر إلى تبديد هذه الصّورة البانوراميّة السّاحرة للمدينة، ويستبدلها بصورة تظهر قبح المدينة وزيفها وبشاعتها بقوله: " لو عادت إيزابيل إلى بوسعادة اليوم لكتبت شيئا مختلفا، فهذه المدينة صارت ملكة صهباء منتهكة الشّرف ... تخاف أن تستيقظ يوما، وتجد نفسها مدينة مخصيّة بلا فحولة. إنّها مدينة مشبعة بالأوهام والسّقطات، تتقلّب حول ماضيها بلا كلل..."[20].

وفي الحقيقة يوجد لهذه الأوصاف المتناهية في الإقذاع ما يبرّرها فالسّارد يبدو ناقما على هذه المدينة التي فقد فيها هويته وذاته، إذ يبدو لنا أنّ جوزيف يعاني شيزوفرينيا** حادّة، فالملاحظ لسيرته وسلوكاته على مدار الرّواية، يجده متناقضا مع ذاته، فاقدا للإرادة وحب الاندماج، معتمدا في قضاء أغلب مصالحه على صديقه سليمان- إضافة إلى عدم رغبته في تكوين علاقات اجتماعية...

تعرّض كذلك السّارد في كثير من محطّات حياته إلى خيبات وأزمات وهزائم نفسيّة، جعلته ركاما من رماد متناثر رمى به في مدينة بوسعادة التي يصرّح أنّه اختارها قصدا، يعبّر عن انشطار هويته بين فضاءين والذي عمّق من مأساته بقوله:"لا أنا جزائريّ كما يلزم لجزائريّ أن يكون رغم باسبوري الأخضر ... ولا أنا فرنسي كما يليق بابن عائلة عريقة تمتدّ إلى قرون من الزّمن..."[21].

وفي موضع آخر نجده يصرّح: "لقد هجرت بلدي، ولم أعد أعرف عنه شيئا... أنا فرنسيّ بلا انتماء، ليس يربطني بوطني الأم سوى بطاقة هويّة..."[22].

ولهذا الانشطار في هوية السّارد ملامحه داخل الرّواية التي تكشف تفاصيل سيرته، فهو من النّاحية الدّينيّة نصفه مسلم ونصفه الآخر مسيحي، دخل الإسلام، وذهب إلى الحج، يصلي أحيانا مع النّاس في المسجد، ومن جهة أخرى نجده يذهب إلى الكنيسة، ويشرب الخمر أحيانا.

لقد عمّق هذا التّشتت من حجم مأساة السّارد، فصار أشلاء بلا روح، ضائعا في الزّمان والمكان، إذ فقد الكثير من أحبته، يقول:"الخسائر تكبر وتنمو معي، خسائر جسيمة، وأخرى صغيرة لأصدقاء وأحبّاء، بعضهم هجرته، وبعضهم الآخر هجرني، صرت لا أحزن كثيرا"[23].

ومن هنا نستنتج أنّ واقع كلّ تلك الحمولة السّلبيّة من الأوصاف التي يكيلها للمدينة ما هي إلاّ محاولة استشفاء وتخفيف من وطأة الانكسار النّفسي الذي يعانيه، فقد فقد وطنه، فقد كذلك أمّه وعلاقته بها، فقد كذلك جارته شانتال التي أحبّها، وجاء إلى مدينة غريبة عنه.

إنّ مدينة بوسعادة بحسب جوزيف صارت بؤرة الحكي الذي يمارس به سلطة السّرد الانتقاميّة، فيرسمها بأشكال تتنازل في دركات الاحتقار والاستصغار، ومحاولة التّمويت، فروحه التي لم تعد تشعر بالرّغبة في البقاء انسربت ملامحها على المدينة التي راحت تغيّر ملامحها بتغيّر نفسيته المضطربة، ويزداد تقزيم المدينة والعبث بمقومّاتها ككيان قائم له وجود مع اضطراب الوضع الأمني للبلاد في السّياق التّاريخي لسنوات التّسعينات، وشعور السّارد بالخطر واللّأمان، إضافة إلى لاجدوى البقاء فيها، فيزداد اضطرام الصّفات المشبعة بالشتائم الموجّهة نحوها، ولعلّ الغريب في الأمر لما يخبرنا السّارد بأنّ حبه للمدينة وغيرته عليها هو ما يجعله ينقم عليها، فعلاقة السّارد بالمدينة علاقة خاصّة يلفّها الغموض والغرابة، لاسيما وأنّنا نجده في آخر المطاف لما يحمل حقائبه وأغراضه يشير إلى أنّه قد حمل بعضا من الأشياء التي تذكّره بهاته المدينة.

إنّ تشكيل الفضاء المكاني وجسدنة المدينة كفضاء حي في هذا النّص الرّوائي جاءت وفق رؤية تراجيديّة، تمثّل مدينة مهزومة، ترسمها شخصيّة مهزومة، في واقع مأساوي مهزوم، في زمان شكّلت فيه الخيبة والمأساة بؤرة الحكي وواقعا انسرب على كلّ تفاصيل المدينة ووسم العمل الرّوائي بميسمه، فكانت كلّ تفاصيل الحكي وعناصره، من أحداث وشخوص وسرد وحوار تنهض بتحقيق هذه الرّؤية وتجسيدها في ثنايا المتن الرّوائي.

الخاتمة: يمكننا أن نوجز أهمّ النّتائج التي توصلنا إليها في بحثنا هذا فيما يلي:

– للفضاء المديني سلطة حضور مكثّفة في المدوّنة الرّوائيّة المعاصرة، والسّارد الجديد يمارس على قارئه وظيفة إيهاميّة من خلال تفصيل الأمكنة وبسطها على خارطة متنه الرّوائي.

– اهتمّت رواية الفضاء المديني بكشف جميع تناقضات المدينة وزيفها، وعنيت الرّواية العربيّة المعاصرة عموما والجزائريّة خصوصا بسرد نواقصها والكشف عن أشكال التنوّع والوفرة فيها.

– تحوّلت المدينة في كثير من الأعمال الرّوائيّة المعاصـرة من مجرّد فضـاء طوبوغرافي ومسـرح للأحداث إلى جهاز حامل لمجموعة من الدّلالات والقيم من خلال ممارسـة الرّوائي لأسـاليب فنيّة جديدة، خاصّـة الأنسـنة والتّشخيص، الّذين يراد من خلالهما التأنيث ثمّ التّمويت.

– سردت رواية سعيد خطيبي «أربعون عاما في انتظار إيزابيل» مدينة بوسعادة، فتدرّج بها الرّاوي "جوزيف" وفق تراتبيّة من الأوصـاف السّـلبيّة، غاصـت بالمدينة في مركبات النّقص، بداية بتجريدها من كلّ القيم الإيجابيّة وصولا بها إلى مدارك الخمول واليأس والهزيمة والواقع التراجيدي الذي انسرب من نفسيّة السّارد إلى فضاء المدينة، فانتهت جثّة محنّطة بالمثالب.

المصادر والمراجع:

المؤلفات:

1– إبراهيم، عبد الله، (2019)، أعراف الكتابة السّـرديّة، المؤسّـسـة العربية للدراسـات والنّشـر، بيروت، لبنان، ط1.

2– باشلار، غاستون، (1984)، جماليّات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتوّزيع، بيروت، لبنان، ط2.

3– بحراوي، حسن، (1990)، بنية الشّكل الرّوائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1.

4– خطيبي، سعيد، (2016)، أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1.

5– روب جرييه، آلان، (دس) نحو رواية جديدة، تر: مصـطفى إبراهيم مصـطفى، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط.

6– صـالح، صـلاح، (2014)، المدينة الضـحلة تثريب المدينة في الرّواية العربيّة، منشـورات الهيئة العامة السّورية للكتاب، دمشق، سوريا، دط.

7– لحمداني، حميد، (1991)، بنية النّص السّردي، المركز الثّقافي العربي للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الدّار البيضاء، المغرب، ط1.

8– النّصير، ياسن، (دس)، الرّواية والمكان، دار الشؤون الثّقافيّة العامة، بغداد، العراق، دط.

الأطروحات:

– بوذيب، الهادي، (2016)، المدينة في الرّواية العربيّة الجزائريّة، قسـم اللّغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب واللّغات، جامعة الجزائر2، الجزائر.

مواقع الأنترنت:

1–صلاح باديس، (2017)، «أربعون عاما في انتظار إيزابيل» ... مرايا الجنوب، جريدة المدن الالكترونيّة، أربعون–عاما–في–انتظار–إيزابيل–...–/https://www.almodon.com/amp/culture/2017/1/5/" . تاريخ آخر زيارة: 2023/04/20."مرايا–الجنوب

2-محمّد برادة، (2017)«أربعون عاما في انتظار إيزابيل» سيرة ثوري، جريدة الحياة الالكترونيّة، . تاريخ آخر زيارة: 2023/04/15."/Articles?AuthorID=266"

الهوامش والإحالات:

[1] آلان روب جرييه، نحو رواية جديدة، تر: مصطفى إبراهيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دس، ص121.

[2] حسن بحراوي، بنية الشّكل الرّوائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص27.

[3] حميد لحمداني، بنية النّص السّردي، المركز الثّقافي العربي للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1، آب 1991، ص53.

[4] ياسين النصير، الرّواية والمكان، دار الشؤون الثّقافيّة العامة، بغداد، العراق، دط، دس، ص16-17.

[5] حسن بحراوي، بنية الشّكل الرّوائي، ص32.

[6] صلاح صالح، المدينة الضحلة تثريب المدينة في الرّواية العربيّة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، دط، 2014م، ص9.

[7] المرجع نفسه، ص28.

[8] عبد الله إبراهيم، أعراف الكتابة السّرديّة، المؤسّسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2019م، ص297.

[9] الهادي بوذيب، المدينة في الرّواية العربيّة الجزائريّة، كليّة الآداب واللّغات، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2015-2016، ص62.

[10] المرجع نفسه، ص62. نقلا عن: فيصل درّاج، نظريّة الرّواية والرّواية العربيّة، ص159.

[11] غاستون باشلار، جماليّات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1404هـ-1984م، ص35.

* الطبوغرافيا: يقصد بها سمات سطح الأرض، أو التّضاريس، أي تمثيل لسطح الأرض بعناصره الطبيعية والبشرية، واستعمل في هذا السّياق للدلالة على أنّ الرواية المعاصرة لم تعد تتعامل مع المدينة كفضاء وسطح تضاريسي جامد، وإنّما بعثت فيه الرّوح من خلال التّشخيص والأنسنة.

[12] حسن بحراوي، بنية الشّكل الرّوائي، ص81.

[13] صلاح صالح، المدينة الضحلة تثريب المدينة في الرّواية العربيّة، ص87.

[14] المرجع نفسه، ص310.

[15] عبد الله إبراهيم، أعراف الكتاب السّرديّة، ص 312.

[16] سعيد خطيبي، أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1437هـ- 2016م، ص120.

[17] محمّد برادة، (2017)«أربعون عاما في انتظار إيزابيل» سيرة ثوري، جريدة الحياة الالكترونيّة، "/Articles?AuthorID=266"

[18] صلاح باديس، (2017)، «أربعون عاما في انتظار إيزابيل» ... مرايا الجنوب، جريدة المدن الالكترونيّة، https://www.almodon.com/amp/culture/2017/1/5/"أربعون-عاما-في-انتظار-إيزابيل-...-مرايا-الجنوب"

[19] سعيد خطيبي، أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ص89.

[20] المرجع نفسه، ص89.

** شيزوفرينيا: وتسمّى كذلك الفصام، ويقصد بها انفصام الشّخصيّة، وهي اضطراب نفسي يتسم بسلوك اجتماعي غير طبيعي، وفشل في تمييز الواقع.

[21] سعيد خطيبي، أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ص90-91.

[22] المرجع نفسه، ص141.

[23] المرجع نفسه، ص79.